الأب روبير الكرملي (١٩٢٧ - ٢٠٠٧)

وُلد الأب روبير في باريس في ٢٨ آذار ١٩٢٧،
في بيت بسيط فقير بالإيمان لكنه غنيّ بالموسيقى.

كان الابن الوحيد، وأخذ عن أبيه منذ صغره حبّ الموسيقى التي صارت كلّ حياته، وكان له حسّ مرهف في تذوّق الموسيقى الدينية. نشأ بعيداً عن الله، بل كان ملحداً في بداية شبابه لا يؤمن بوجوده.

لكن الله عرف كيف يجتذبه إليه من خلال ما أحبّ. ففي أحد الأيام، بينما كان يستمع إلى معزوفة للموسيقار الكبير موزارت، ركع فجأة — هو الملحد آنذاك — وسجد لله، لأنه شعر أن موسيقى كهذه لا يمكن أن تُكتَب إلا إذا كان هناك إله ألهمها. هكذا نمت في نفسه فكرة البحث عن الجمال، لا أيّ جمال، بل الجمال المطلق؛ فبدأ يتعرّف على المسيح، «الجمال الأوحد»، الذي صار طريق حياته وفرحه الحقيقي.

وبعد فترة تعمّق، دخل الكرمل في ٧ كانون الأول ١٩٤٥. ولماذا الكرمل بالذات؟ لأنه أحسّ منذ البداية أن حياة الصلاة هي الطريق الأفضل للدخول في علاقة حميمة مع الله. وكانت المفاجأة الأولى التي انتظرته أنه حُرِم من الموسيقى التي كانت كلّ حياته؛ فقد كان يعزف قبل دخوله الرهبانية على آلتي الفلوت (ألتو) والكيتار، وسجّل تسجيلات عديدة مع فريق من الشباب في إحدى الإذاعات الباريسية. لكن الآلة الوحيدة المسموح بها في الكرمل آنذاك كانت الأورغن، فطُلب منه أن يترك آلاته ويتعلّم العزف على الأورغن الذي لم يكن يحبّه، لمرافقة التراتيل والطقوس، فأطاع وتعلّم. هنا بدأت مرحلة التطهير الأولى: فالله الذي جذبه إليه بالموسيقى، جعله سريعًا يتجرّد ممّا أحبّ لكي لا ينقسم قلبه، بل يرتكز على حياته الرهبانية وصلاته وعلى الله وحده.

وشيئًا فشيئًا كشفت له حياته الرهبانية أحد أسرار حياته الكبيرة: أن المسيحية، على عكس ما كان يظنّ في البداية، ليست نظامًا عقلانيًا أو مجموعة عقائد وأخلاق، بل هي قبل كل شيء لقاء، قصة حبّ. وفهم أن هذا اللقاء ليس مجرد عواطف ومشاعر، بل هو اتّباع للمسيح حقًا، طريق طويل يعبر مناطق وعرة ومظلمة ومؤلمة في كثير من الأحيان؛ لأن اللقاء بالمسيح يمرّ من خلال التشبّه بحياته نفسها، حيث عاش المعلّم يسوع وتألّم من الغياب الظاهري لله ومن سيطرة الظلمة والشر الظاهريين على العالم. وهكذا عرف أن اتّباع المسيح يعني عبور هذا الطريق الضيق وتحمُّل مشقّاته على مثال المعلّم، مع أنه — وهنا المفارقة — عرف أن هذا الطريق نفسه سيقوده إلى الفرح الحقيقي.

سِيم كاهنًا عام ١٩٥٣، ولأنه كان يريد أن يهب حياته ولا يحتفظ بها لنفسه، قبل بعد ثلاث سنوات من رسامته أن يأتي مرسلًا إلى العراق استجابةً لحاجة الرهبانية، وبتشجيع من أستاذه المستشرق الفرنسي الكبير لويس ماسينيون، أستاذ التصوف الإسلامي وناشر مؤلفات الحلاج، الذي شجّع رؤساءه الكرمليين على إرساله إلى العراق. فدرس الأب روبير لذلك اللغة العربية والكلدانية في جامعة السوربون ثلاث سنوات قبل سفره. وكان يُمنّي نفسه في البداية بالتخصّص في التصوف الإسلامي ومقارنته بالتصوف المسيحي، لكنه عدل عن ذلك لاحقًا.

وصل العراق عام ١٩٥٦ مع الأبوين الكرمليين إيرينيه وريمون، وما إن وصل حتى أوكل إليه رؤساؤه مسؤولية الاهتمام بالشبيبة، فبدأت قصته معهم، وعكف على تنشئتهم على حياة الصلاة وتعميق علاقتهم بالله. وساهم

مع الرهبانات الموجودة في البلد وبعض الكهنة من مختلف الطوائف في تأسيس مركز القديس يوسف عام ١٩٦٠، وفي تأسيس عدد من الأخويات ذات الاتجاه الرسولي كالأخوية المريمية والأخوية الطلابية، وكذلك في تأسيس النادي الثقافي المسيحي (السنتر). وكرّس سنينَ عديدة من حياته لتوعية الشباب المسيحي بالتزامهم ودعوتهم الرسولية وللتعليم المسيحي في الخورنات، مع اهتمام خاص بالطقوس وبالأفخارستيا.

وفي أوائل السبعينات، ساهم مع إخوته الكرمليين في تحويل دير عذراء فاطمة إلى مركز للتعمّق الروحي وللنمو الروحي عند الشباب خاصة والمسيحيين عامة، وفي تكوين «أخوية عذراء فاطمة» لغرض التعمق الروحي عن طريق التأمل في الإنجيل ومراجعة الحياة والصلاة الصامتة والرياضات الروحية.

كان أبًا حقيقيًا لكثير من الشباب، يرشدهم ويقودهم — لا إليه شخصيًا، بل نحو المسيح. وكان موهوبًا في الإرشاد، يُشعرك بحضور الله الحنون الرحيم المحبّ حتى لأكبر الخطأة. وكان حبّه للمسيح حبًا كبيراً للكنيسة بمختلف طوائفها، وللقداس الإلهي خاصة؛ فقد رأى في الأفخارستيا «ذِكرًا» للرب ليس مجرد استعادة ذكريات ماضية، بل ذكراً يخلق الحاضر ويجعل المسيح نفسه حاضراً حقًا بين أيدينا وفي قلوبنا، فيُحيينا ويجعلنا نحيا حقًا.

أحبّ العراق حبًا شديداً حتى إنه، قبل نهاية الحرب العراقية–الإيرانية وفي ظل خطر طرد الرهبان والراهبات الأجانب، قبل هو والآباء الآخرون أن يتخلوا عن جنسياتهم الأجنبية ويحصلوا على الجنسية العراقية — وكان هذا هو الحل الوحيد آنذاك — لكن ذلك لم يحصل لأن الأمور حُلّت بشكل آخر في الساعات الأخيرة. وكان يشعر عند سفره إلى فرنسا بأنه غريب هناك، وينتظر عودته «إلى بلده العراق» بفارغ الصبر. وفي إحدى سفراته إلى منطقة كوخي للتحضير لرياضة روحية، سأله أحد أهالي المنطقة: «هل أنت عراقي؟» فأجاب بابتسامته الهادئة: «أنا عراقي ونِصّ«!

بعد حرب الكويت بدأ المرض يتعبه ويثقل عليه، وأُصيب بجلطة دماغية شلّت جزءاً من جسده لبعض الوقت، وأحسّ أن نهايته اقتربت. فأراد أن يترك للعراق شيئًا مهمًا، فأسّس مع الآباء الكرمليين الآخرين في دير عذراء فاطمة «مدرسة مار إيليا» للصلاة، التي ركّزت بالدرجة الأولى على اكتشاف كنوز الروحانية السريانية الشرقية، خاصة بالاعتماد على كتابات يوحنا الدلياثي وغيره من روحانيي الكنيسة الشرقية، وكذلك لقاءات عن الكتاب المقدس بمساعدة الآباء الكرمليين الآخرين.

وفي دراسته الأكاديمية، بعدما شاهد مؤلفات الأب "تْوِيّا" عَدَلَ عن التخصص في التصوف الإسلامي، وأراد في البداية نشر إحدى مقالات الأب "ترساي" المختص بالليتورجية الكلدانية، فبدأ بجمع المخطوطات لكنه وجد شخصاً آخر قد شرع في العمل نفسه. فبحث عن كاتب عراقي آخر، فوقع اختياره على يوحنا الدلياثي، أكبر متصوّف عراقي نسطوري مشرقي في القرن الثامن. وفي حين وجد مخطوطة عربية شجّعته على هذا الاختيار، اكتشف في بغداد أنها مكتوبة بلغة عربية قديمة صعبة الفهم ولا تضمّ كل ما كتبه الدلياثي في التصوف المشرقي العراقي. فبحث عن مخطوطات أخرى وحصل على خمس عشرة مخطوطة مختلفة، خاصة تلك التي تتضمّن مقالات هذا التصوف.

كان موضوع رسالته في الماجستير عدداً من المخطوطات الخاصة بالرسائل التي كتبها يوحنا الدلياثي، والتي ترجمها الأب روبير من الكلدانية إلى الفرنسية. أما رسالة الدكتوراه فكانت عن الشرح اللاهوتي والصوفي لجميع رسائل ومقالات يوحنا الدلياثي، وتكوّنت من كتابين: الأول بعنوان "النور الذي لا صورة له" (la lumière sans Forme)طُبع عام ١٩٧٨ في ٣٥٥ صفحة، والثاني بعنوان "التعليم الروحاني ليوحنا الدالياثي" (L'enseignement spirituel de Jean de Dalyath) ، في ٥٣٠ صفحة.

كرّس أكثر من ثلاثين سنة من حياته لدراسة الروحانيات الشرقية وتعليمها والتعمّق في أسرارها وغناها، وكتب مقالات وكتيبات عديدة، وألّف ثلاثة كتب مهمة بالفرنسية: مجموعة رسائل يوحنا الدلياثي، ومدخل إلى دراسة التصوف المسيحي السرياني الشرقي، والتعليم الروحي ليوحنا الدلياثي. وبقي حتى آخر أيامه يدرس ويقرأ ويكتب ويعطي، ولم تمنعه أمراضه الكثيرة من هذا البحث الدائم عن وجه المسيح. وكانت قوته الأساسية تستمد من إيمانه الراسخ بأن المسيح معه ولن يتركه أبدًا، حتى لو ابتعد هو عنه.

عاش في العراق الذي أحبّ أهله مدة ثمان وأربعين سنة، أغنى خلالها كنيسة العراق بمحاضراته العميقة في مختلف الكنائس، وخدم بأمانة ومحبة وتواضع وتجرّد في المعهد الكهنوتي وكلية بابل سنين طويلة. غادر العراق عام ٢٠٠٤ عائدًا إلى فرنسا، وانتقل إلى جوار الرب في التاسع من آب ٢٠٠٧، ودُفن في مدينة ليزيو الفرنسية.

ستبقى حياته مثالًا للراهب المتواضع الذي أحبّ العراق والعراقيين ووهب حياته لخدمتهم.